المزمور ٤٩ [٤٨]
في مواجهة لا عدالة الحياة

القَسّ هادي غنطوس
كلّيّة اللاهوت للشرق الأدنى، بيروت

النصّ

١ لكبير المغنّين، لبني قورح. مزمور.
٢ إسمعوا هذا يا كلّ الشعوب، أنصتوا يا جميع سكّان الدنيا.
٣ معًا دون وعال، غني وفقير على السواء.
٤ فمي يعلن حكمًا ولهج قلبي تبينات.
٥ سأميل أذني إلى مثل؛ ومع كنّارة سأحلّ أحجيتي.
٦ لماذا أخاف في أيّام الشرّ، عندما يحيط بي إثم متعقّبيّ؛
٧ أولئك المتّكلون على ثروتهم، والذين يفتخرون بعظمة غناهم؟
٨ بالحقّ، لا يستطيع أخ أن يفدي إنسان، ولا أن يعطي كفّارة عنه لله.
٩ كفّارة حياتهم ثمينة جدًّا وتقصر إلى الأبد.
١٠ ليحيا على الدوام، ولا يرى فسادًا.
١١ ذلك يراه، الحكيم يموت، الغبي والأحمق كلاهما يفنيان ويتركان ثروتهما لآخرين.
١٢ بواطنهم تكون منازلهم إلى الأبد، ومساكنهم إلى دور فدور. ينادون بأسمائهم على البلدان.
١٣ الإنسان الذي لا يبيت في كرامة يشبه البهيمة التي تقطع.

book mo2tamar .indd 239 6/14/2010 10:21:40 AM

١٤ هذه هي طريقهم إلى الحماقة. آخرون يسرون بأقوالهم.
١٥ يُعدّون كخراف للهاوية. الموت يرعاهم، ومستقيمون يتحكّمون بهم
حتّى الصباح. صورتهم تصير لبلاءٍ، الهاوية مسكن له.
١٦ لكنّ الله يفدي نفسي من يد الهاوية، لأنّه يأخذني.
١٧ لا تخف إذا استغنى إنسان، إذا زاد مجد بيته.
١٨ لأنّه لا يأخذ معه شيئًا في موته، ومجده لا ينزل وراءه.
١٩ لأجل أنّه يبارك نفسه في حياته، ويحمدونك إذا صنعت خيرًا لنفسك.
٢٠ تأتي حتّى جيل آبائه. لا يرون نورًا إلى الأبديّة.
٢١ إنسان في كرامة ولا يفهم مثلاً يشبه البهيمة التي تقطع.

مقدّمة

ينتمي مز ٤٩ إلى الكتاب الثاني في سفر المزامير، والذي يمتدّ من مز ٤٢ إلى مز ٧٢. ولكنّ الأهمّ من ذلك بالنسبة إلينا هو أنّ هذا المزمور ينتمي إلى ما يدعى بمجموعة المزامير الإلوهيّة أوالإلوهيميّة (Elohistic Psalter)، أي مجموعة المزامير ٤٢–٨٣، والتي تستخدم اسم "إلوهيم" العالميّ لله عوضًا عن اسم "يهوه" الخاصّ باليهود، وبالتالي تحاول أن تقدّم رسالة كونيّة شاملة تخاطب الجميع. هذه الكونيّة والشموليّة تتّفقان مع مضمون المزمور ونمطه الأدبيّ كأحد مزامير الحكمة، كما سنرى في ما يلي.

قراءة سريعة للمزمور

مز ٤٩ هو مزمور صعب في مفرداته وبناء جمله، لكن يمكن تقسيمه بشكل عامّ إلى مقدّمة تمهّد للرسالة التي يحملها المزمور (آ ١–٥)، وإلى الجسم الرئيسيّ للقصيدة الذي يتضمّن تلك الرسالة (آ ٦–٢١).

book mo2tamar .indd 240 6/14/2010 10:21:40 AM

١- مقدّمة مز ٤٩

مقدّمة المزمور، آ ٢-٥، هي مقدّمة نموذجيّة تقليديّة لتعليم ذو طابع حكميّ؛ فالنصف الأوّل من مقدّمة المزمور (آ ٢-٣) يحمل طابعًا شاملاً بما يتّفق وطبيعة التقاليد الحكميّة التي تتميّز بطبيعتها الواسعة والشاملة والمشتركة؛ فمن خلال المتلقّين المفترضين الذين تشير إليهم هاتان الآيتان (جميع الشعوب، جميع سكّان الدنيا، عال، دون، غنيّ، وفقير)، تعلن المقدّمة أنّ تعليم الحكمة الذي سيقدّمه المزمور هو تعليم موجَّه ونافع لكلّ البشريّة. وإن كان الموضوع الذي يتعامل ويتصارع معه المزمور، كما سنرى لاحقًا، يهمّ بشكل خاصّ أولئك الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا والفقيرة، والذين يتعامل المزمور مع مشكلتهم في إطار واسع وشامل.

في حين أنّ المصطلحات التي تتضمّنها هذه المقدّمة، خاصّة في الجزء الثاني منها (آ ٤-٥)، كالحكم والتبيّنات والمثل والأحجية تقترح أمرين اثنين؛ فهي، من جهة، تقترح بأنّ المزمور سيقوم بتقديم تعليم حكمة؛ ومن جهة أخرى، تقترح بأنّ الحكمة التي سيقدّمها هذا المزمور ليست مجرّد شيء واضح للحسّ العامّ، ولكنّها شيء خفيّ وصعب الفهم، وبالتالي مشوّش وغامض يتعارض مع ما هو ظاهر للحسّ العامّ[١]، ولذلك لا يستطيع فهمه وإدراكه سوى الحكيم الذي يستطيع أن يرى ما وراء المظاهر الخادعة للحياة. وذلك ما يؤكّده كاتب المزمور في إعلانه في آ ٥ بأنّ تعليم الحكمة الذي سيقدّمه في الجسم الرئيسيّ لمزموره يأتي من خلال مثل وأحجية، وبالتالي فتحديد ذلك المثل وفهمه وكشف تلك الأحجية وحلّها هو السبيل الوحيد لإدراك رسالة الحكمة التي يعلنها المزمور وفهمها.

(١) W. Brueggemann, *The Message of the Psalms: A Theological Commentary,* Minneapolis: Augsburg, 1984, p. 107.

book mo2tamar .indd 241 6/14/2010 10:21:41 AM

ولكن، قبل الالتفات إلى ذلك، دعونا نلاحظ بأنّ الإشارة إلى الكنّارة في آ ٥ تظهر الإطار والنمط الغنائيّ أو الإنشاديّ، وبالتالي التعبّديّ، للمزمور، وبالتالي تتحدّى المفهوم الذي كان شائعًا لدى الكثير من المفسّرين بأنّ مزامير الحكمة هي مزامير لاتعبّديّة، هدفها الأوّل هو التعليم وليس العبادة(٢).

٢- الجسم الرئيسيّ للمزمور ٤٩

الجسم الرئيسيّ للمزمور ٤٩ (آ ٦-٢١) هو عبارة عن قصيدة يمكن تقسيمها من الناحية الأدبيّة إلى قسمَين رئيسيَّين (آ ٦-١٣، ١٤-٢١)، ينتهي كلّ منهما بقرار متشابه، "يشبه البهيمة التي تقطع"(٣). أمّا بالنسبة إلى مضمون ورسالة تلك القصيدة، فإنّ قراءة سريعة لها قد توحي بأنّهما واضحَين، حيث أنّ أيّ شخص يستطيع أن يلخّص هذه القصيدة وما تعلنه على الشكل التالي:

آ ٦-٧ تطرحان السؤال الذي يشكّل المشكلة التي يتصارع ويتعامل معها المزمور: "لماذا أخاف في أيّام الشرّ، عندما يحيط بي إثم متعقّبيّ، أولئك المتّكلون على ثروتهم، والذين يفتخرون بعظمة غناهم؟"؛ فالمزمور هنا ينقل صرخة المستضعفين في وجه لاعدالة هذه الحياة التي يزداد فيها الأشرار والظالمون نجاحًا، في حين يزداد فيها الأبرار معاناة، وبالتالي، فتلك المشكلة ترتبط بموضوع الثيوديسيّة ومفهومها، أو علاقة الله بالشرّ وما يبدو على أنّه لامبالاة الله تجاه لاعدالة الحياة.

في حين أنّ آ ٨-١٤ تفرش القاعدة للإجابة الرئيسيّة التي سيقدّمها كاتب المزمور للسؤال الذي يتصارع معه في مزموره، من خلال إعلان وتحليل غباوة

(٢) K. J. Dell, "'I will Solve my Riddle to the Music of the Lyre' (Psalm XLIX 4 [5]): A Cultic Setting for Wisdom Psalms?" *Vetus Testamentum* 54/4 (2004) 445-447.

(٣) J. C. McCann, JR., "The Book of Psalms: Introduction, Commentary & Reflection", *The New Interpreter's Bible*, vol. IV, Nashville: Abingdon Press, 1996, p. 876.

book mo2tamar .indd 242 6/14/2010 10:21:41 AM

الأغنياء وعدم وجود معنى لنظرتهم للحياة ومفهومهم حولها؛ فهذه الآيات تعلن تساوي جميع البشر أمام الموت، الذي يشكّل وحده الشيء الذي لا مفرّ منه، والذي يساوي جميع البشر ببعضهم ويضعهم جميعًا على قدم المساواة. ومن هنا تأتي غباوة الأغنياء وأصحاب المراكز الرفيعة الذين يظنّون، مخطئين، أنّ غناهم وجاههم وسلطانهم تعطيهم امتيازًا بأيّ شكل من الأشكال في مواجهة الموت، وغباوة أولئك الذين يسيرون وراءهم ويخدعون بالمظاهر الكاذبة لغناهم.

بينما آ ١٥–١٦ تقدّم النقطة الرئيسيّة التي يتبنّاها كاتب المزمور ويبني عليها ردّه في مواجهة لاعدالة الحياة، حيث أنّ كاتب المزمور يتجاوز هنا إعلانه الذي أعلنه قبل قليل بأنّ الموت هو مصير كلّ البشر، وبالتالي هو مَن يساوي جميع البشر، ليركّز على المصير الرهيب الذي ينتظر الأغنياء وأصحاب الجاه والسلطان المتّكلين على ثرواتهم وسلطانهم. ويؤكّد كاتب المزمور بذلك خطأ المفهوم الشائع آنذاك، والذي كان يعتقد بوجود نوع من الحماية أو الامتياز الخاصَّين اللذَين يتمتع بهما الأغنياء بعد موتهم بسبب ثرواتهم(٤)؛ فهو يؤكّد أنّ الأغنياء، وعلى العكس من المنطق الشائع، هم في منتهى الضعف، لا بل في وضع أسوأ بكثير من غيرهم، أمام الموت، وأمام المصير الذي ينتظرهم حيث سيقضون أبديّتهم في الهاوية، عالم الموت المخيف؛ في حين أنّه، مع آ ١٦، يبدو كاتب المزمور وكأنّه يلتفت أخيرًا إلى الفقراء ومصيرهم ليعلن إيمانه أنّ الله يقف في صفّ، ويعمل بشكل فاعل لمصلحة أولئك الذين لا يعتمدون على غناهم وقوّتهم.

وبعد إعلان جوهر الموقف الذي يتبنّاه في مواجهة لاعدالة الحياة في آ ١٥–١٦، يقدّم كاتب المزمور في آ ١٧–٢٠ الإجابة المباشرة للسؤال الذي يطرحه

(٤) W. Brueggemann, *The Message of the Psalms: A Theological Commentary*, p. 108-109.

book mo2tamar .indd 243 6/14/2010 10:21:41 AM

في آ ٦–٧، "لماذا أخاف...؟"، بإعلانه عدم وجود أيّ حاجة للخوف، "لا تخف..."، ممّا يظهر، بشكل غير صحيح، على أنّه لا عدالة في هذه الحياة؛ فغنى أيّ إنسان وجبروته لا يعنيان شيئًا طالما أنّه سيخسر كلّ ذلك عند موته، حيث لن يفيده بريق نقوده في الحصول على أيّ بصيص نور في ظلمة موطن الموت الرهيب الذي يقضي فيه أبديّته، ولن يفيده تملّق السائرين وراءه في تخفيف معاناة ذلك المصير المرعب.

وبالتالي، فالمزمور ببساطة، كما يستطيع أيّ شخص أن يدرك من القراءة الأولى، يتعامل مع موضوع لاعدالة هذه الحياة، التي يزداد فيها الأشرار غنىً دون أيّ بارقة أمل للفقراء الذين يزدادون معاناة. ويعلن كاتب المزمور، أيضًا كما تظهر القراءة الأولى، أنّ تلك اللاعدالة يجب ألاَّ تكون مدعاة للخوف، لأنّ ذلك الغنى لن يفيد الأغنياء في تجنّب الموت والنهاية في الهاوية، حيث لن يأخذوا معهم شيئًا.

لكن، كما أشرنا أعلاه، يشير كاتب مز ٤٩ في افتتاحيّة قصيدته، وبالتحديد في آ ٥، إلى وجود مَثَل وأحجية في مزموره، الأمر الذي يعني أنّ الحكمة التي يعلّمها لا تأتي بشكل بسيط وليست واضحة كما تبدو، ولكنّها مخبّأة في قلب مَثَل وأحجية علينا إيجادهما وتحديدهما، ومن ثَمَّ فهمهما وحلّهما وتفسيرهما لكي نتمكّن من الوصول إلى الرسالة الحقيقيّة للمزمور. وبالتالي، يعلن كاتب مز ٤٩ لمتلقّيه أنّ مهمّته هي ليست مجرّد محاولة فهم المزمور، ولكنّها تتضمّن، قبل كلّ شيء، آخر محاولة كشف الأحجية وحلّها وفهْم المَثَل المخبَّأين في قلب مزموره. يتحدّى كاتب مز ٤٩ متلقّيه، ومن ضمنهم نحن، لكي لا يتوقّفوا على حدود القراءة السطحيّة الظاهرة له، لأنّ قراءة كهذه هي في أفضل الحالات قراءة جزئيّة ومنقوصة في فهم الحكمة التي يعلنها هذا المزمور، والتي عليهم، في سبيل معرفتها وفهمها، محاولة الدخول إلى العمق في التعامل مع المزمور، في محاولة لكشف المثل الذي يقدّمه وتفسيره، والأهمّ من ذلك،

book mo2tamar .indd 244 6/14/2010 10:21:41 AM

كشف الأحجية التي يخبّئها هذا المزمور وحلّها. ولذلك، فنحن سنقوم في المرحلة التالية من دراستنا هذه بمحاولة كشف ذلك المثل وتفسيره، وتحديد تلك الأحجية وحلّها، سعيًا لامتلاك فهم أفضل للمزمور وللحكمة التي يلعنها. لكن علينا قبل القيام بذلك إدراك عدد من النقاط الرئيسيّة المرتبطة بالأحجية كنمط موجود في الأدب.

الأحجية كنمط أدبيّ

الأحجية هي نمط أدبيّ معروف في الشرق الأوسط القديم، ويوجد عدّة أمثلة عليه في الكتاب المقدّس، لعلّ الأحجيات التي يطرحها شمشون (قض ١٤–١٦) هي من أبرزها. وربّما يكون من المفاجئ معرفة عدد الأحجيات المتشابهة الموجودة في أدب مختلف الشعوب، حتّى تلك التي لا يجمع بينها أيّ رابط زمنيّ أو جغرافيّ واضح(٥).

من جهة أخرى، فإنّ الأحجيات الأفضل أدبيًّا وخطابيًّا لدى مختلف الشعوب القديمة هي تلك التي تأخذ نمطًا شعريًّا، في حين أنّ الإطار الأفضل والأكثر ملاءَمة لتقديم الأحجيات هو أدب الحكمة(٦)، وَكِلاَ الأمرَين يتوفّران في مزمورنا.

أمّا هدف الأحجية في الأدب فهو تشويش المتلقّين من خلال تقديم إجابة غير متوقّعة، في موقعها كما في مضمونها، للموضوع المطروح(٧)؛ ففي الأحجيات الأدبيّة يحاول مقدّم الأحجية أن يُظهر مقدّراته المميّزة من خلال تقديم أحجية تشوّش متلقّيه وتربكه، وتظهر تفوّقه عليه في فهمها، وبالتالي

(٥) L. G. Perdue, "The Riddle of Psalm 49", *Journal of Biblical Literature* 93/4 (1974) 534.

(٦) *Ibid,* p. 534-535.

(٧) *Ibid*, p. 534.

book mo2tamar .indd 245 6/14/2010 10:21:41 AM

تفوقه عليه في فهم الحياة، وامتلاك الحكمة اللازمة للتعامل معها وحلّ مشاكلها وتناقضاتها، في الوقت الذي يواجه فيه المتلقّي على الطرف الآخر خطر الفشل في حلّ الأحجية بطريقة صحيحة، والذي يعني فشله في فهم الحياة والتعامل معها، الأمر الذي يعني موته، أي خسارته للمعنى الحقيقيّ للحياة؛ في حين أنّ طرح أحجية محلولة يعني فشل مقدِّمها وعجزه، وعدم امتلاكه للحكمة اللازمة للحياة، وبالتالي مواجهته هو لمصير الموت[٨]. هذا هو التحدّي الذي يضعه كاتب مز ٤٩ أمام متلقّيه من خلال إعلانه أنّ الحكمة التي يعلّمها هي مخبّأة في أحجية مخبّأة في مزموره.

أحجية مز ٤٩

كما قلنا أعلاه، يشير كاتب مز ٤٩ إلى وجود مَثَل وأحجية في مزموره، لكن، في الحقيقة، المثل الذي يقدّمه مز ٤٩ ليس منفصلاً عن الأحجية الموجودة فيه، ولكنّه جزء منها و يشكّل إحدى مراحلها؛ فالأحجية التي يقدّمها كاتب مز ٤٩ لمتلقّيه هي ليست مجرّد أحجية بسيطة، ولكنّها أحجية معقّدة ومركّبة تتألّف من ثلاثة أحجيات أو ثلاث مراحل مختلفة، ولكنّها متسلسلة ومترابطة؛ ويشكّل المثل الأحجية أو المرحلة الثانية منها؛ فالأحجية أو المرحلة الأولى عبارة عن سؤال مباشر، في حين أنّ الأحجية أو المرحلة الثانية هي المثل الذي تشير إليه آ ٥، أمّا الأحجية أو المرحلة الثالثة والأخيرة فهي عبارة عن إعلان غامض.

I. الأحجية أو المرحلة (١): سؤال مباشر

هذه الأحجية أو المرحلة هي عبارة عن السؤال المباشر الذي يطرحه كاتب مز ٤٩ في مزموره، وبالتحديد، كما رأينا أعلاه، أيّ آ ٦–٧:

(٨) *Ibid*, p. 535-536, 542.

book mo2tamar .indd 246 6/14/2010 10:21:41 AM

٦ لماذا أخاف في أيام الشرّ، عندما يحيط بي إثم متعقبيّ،
٧ أولئك المتّكلون على ثروتهم، والذين يفتخرون بعظمة غناهم؟

وبالتالي فهذه الأحجية هي الأوضح والأسهل، لأنّها الأحجية التي، كما رأينا أعلاه، يستطيع أيّ شخص، ومن القراءة الأولى للمزمور، أن يدركها وأن يكتشف الإجابة التي يقدّمها كاتب المزمور نفسه وبشكل واضح لها؛ فكما أشرنا أعلاه، يدور مز ٤٩ بمجمله حول السؤال المطروح في آ ٦–٧، والذي يشكّل الأحجية الأولى في المزمور؛ ويكرّس كاتب المزمور بقيّة مزموره للتعامل مع هذا السؤال بحيث تقوم آ ٨–١٦ بفرش الأرضيّة ووضع القاعدة والتمهيد للإجابة المباشرة التي يقدّمها كاتب المزمور لذلك السؤال في آ ١٧–٢٠:

١٧ لا تخف إذا استغنى إنسان، إذا زاد مجد بيته،
١٨ لأنّه لا يأخذ معه شيئًا في موته، ومجده لا ينزل وراءه.
١٩ لأجل أنّه يبارك نفسه في حياته، ويحمدونك إذا صنعت خيرًا لنفسك.
٢٠ تأتي حتّى جيل آبائه، لا يرون نورًا إلى الأبديّة.

وبالتالي فهذه الأحجية هي ببساطة، وكما قلنا أعلاه، تطرح السؤال المباشر الذي يتصارع معه المزمور، والذي يطرحه الكثيرون عن سبب لاعدالة هذه الحياة، التي يزداد فيها الأشرار غنى لهم وظلمًا للأبرار الذين يزدادون فقرًا ومعاناة، ثمّ تقوم بالإجابة على ذلك السؤال بالتأكيد على عدم وجود أيّ مبرر لذلك الخوف، لأنّ هذه اللاعدالة هي ظاهريّة وزائفة وبلا معنى، بما أنّ ذلك الغنى لن يشكّل أيّ ضمانة للأغنياء في مواجهة الموت، أو يكون ذو فائدة لهم في الهاوية حيث لا يملكون أيّ ثروة أو معين. بكلمات أخرى، الموت وعدالته هو الإجابة التي يقدّمها كاتب المزمور في مواجهة لاعدالة هذه الحياة، والمشكلة الثيوديسيّة التي يطرحها هذا الواقع.

book mo2tamar .indd 247 6/14/2010 10:21:41 AM

لكنّ ما قلناه يظهر أنّ كشف هذه الأحجية وحلّها ليسَا بالأمر الصعب أو المعقَّد، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عمّا إذا كان سؤال وجواب مباشرين وواضحين كهذين يشكّلان ما يستحقّ بأن يدعى أحجية. لكنّ الفخّ أو الأحجية الحقيقيّة في هذه الأحجية هي أنّها تهدف إلى خداع متلقّي مز ٤٩، وجعله يتوقّف عندها، وبالتالي الفشل في كشف الأحجيتين الأكثر صعوبة اللتين يتضمّنهما المزمور.

II. الأحجية أو المرحلة (٢): مَثَل مخفيّ

إذا كان الموت كحقيقة يتساوى أمامها الجميع، بغضّ النظر عن غناهم وثروتهم، هو إجابة الأحجية الأولى، فإنّه الأساس الذي يبني عليه كاتب مز ٤٩ الأحجية أو المرحلة الثانية من أحجيته المركّبة، والتي يقدّم فيها المثل الذي يعلن عن وجوده في مزموره (آ ٥)، وذلك المثل باختصار موجود في الآيتين ١٣ و٢١:

١٣ الإنسان الذي لا يبيت في كرامة، يشبه البهيمة التي تقطع.

٢١ الإنسان في كرامة ولا يفهم مثلاً، يشبه البهيمة التي تقطع.

فهاتان الآيتان تمتلكان بنية متناظرة، وتتطابقان في النصف الثاني منهما، وتشكّلان، كما أشرنا أعلاه، نوعًا من القرار أو اللازمة التي تتكرّر في نهاية جزءَيّ القصيدة التي تشكّل الجسم الرئيسيّ للمزمور ٤٩، ولكنّهما، بالإضافة إلى ذلك، ومن خلال كلّ ذلك، تقدّمان مثلاً مخفيًّا ذا مغزى وأبعاد هامّة.

فالآية ١٣ تعلن بأنّ الإنسان الفقير الذي يموت هو مثل البهيمة التي تنتهي وتتبدّد وتختفي في الهاوية. ومثل هكذا إعلان يتّفق مع الفكر الذي كان سائدًا في ذلك الوقت، حيث لم يكن الفقراء أفضل بكثير من الحيوانات، على الأقلّ من وجهة نظر الأغنياء.

book mo2tamar .indd 248 6/14/2010 10:21:41 AM

لكنّ آ ٢١، ومن خلال إجراء تعديل طفيف في سياق الجملة، تعلن إعلانًا مختلفًا وخطيرًا جدًّا؛ فمن خلال نقل النفي من الكرامة (آ ١٣) ليصبح مرتبطًا بالفهم الذي يتمّ إدخاله إلى آ ٢١، يعلن مز ٤٩ أنّ الأغنياء والمتسلّطين أنفسهم، وبسبب عجزهم عن فهم حقيقة عدم فائدة أموالهم وسلطانهم أمام الموت، وبالتالي زيف لاعدالة هذه الحياة، هم أيضًا يتساوون مع البهائم الفانية، لا بل إنّ هذه الآية تذهب أبعد من ذلك، لتعلن بأنّ التشابه ما بين الأغنياء والمتسلّطين العاجزين عن الفهم والبهائم الفانية يمتدّ إلى حياة أولئك الأغنياء والمتسلّطين حتّى قبل أن يموتوا، من خلال إعلان تشابههم مع البهائم الميتة دون أيّ إشارة إلى موتهم هم، على عكس ما هو موجود في حالة الفقراء (آ ١٣). وبالتالي فالآية ٢١ تبني علاقة غير متوقّعة ما بين الأغنياء وبهائمهم[٩]، فلا تكتفي بإعلان نهاية واحدة لكليهما، والذي هو بحدّ ذاته إعلان خطير يتحدّى المفاهيم والأعراف السائدة، ولكنّها تعلن بأنّ الغنيّ الحيّ، وحتّى قبل مماته، يشبه البهيمة الميتة.

أمّا عندما نأخذهما معًا، فإنّ كاتب المزمور يعلن، من خلال آ ١٣ و٢١ مجتمعتين، وجود علاقة متعدّية تقود إلى نوع آخر من المساواة، هو تساوي الغنيّ أو المتسلّط الحيّ مع الفقير الميت. وبالتالي، فمن خلال هذه الأحجية، لا يكتفي كاتب مز ٤٩ بإعلان بطلان لاعدالة هذه الحياة، ولكنّه يعكسها لصالح الفقراء، الذين يعلن تساوي موتهم مع حياة الأغنياء الجشعين المتّكلين على أموالهم، الذي يعجزون عن فهم عدم فائدة أموالهم وسلطانهم في مواجهة الموت، وبالتالي يموتون حتّى من قبل أن يموتوا.

III. الأحجية أو المرحلة (٣): إعلان غامض

لا يتوقّف كاتب مز ٤٩ عند هذا الحدّ، ولكنّه يخفي في قلب مزموره أحجية أو مرحلة أخرى، أكثر صعوبة للاكتشاف وللحلّ في أحجيته المركّبة

(٩) *Ibid*, p. 540.

book mo2tamar .indd 249 6/14/2010 10:21:41 AM

والمعقَّدة. تلك الأحجية هي الإعلان الغامض الذي يقدّمه كاتب المزمور في آ ٨–٩ و١٦:

٨ بالحقّ، لا يستطيع أخ أن يفدي إنسان، ولا أن يعطي كفّارة عنه لله. ٩ كفّارة حياتهم ثمينة جدًّا،١ وتقصر إلى الأبد.

١٦ لكنّ الله يفدي نفسي من يد الهاوية، لأنّه يأخذني.

ففي آ ٨–٩ يعلن كاتب المزمور أنّ الموت هو المصير الذي ينتظر الجميع دون استثناء، ولا يمكن لأيّ إنسان، فقيرًا كان أو غنيًّا، أن يجد أيّ فداء منه، سواء كان في إنسان أو في ثروة. لكنّه في آ ١٦ يعلن أنّه، هو شخصيًّا، سيتجنّب ذلك المصير لأنّ الله شخصيًّا هو من سيفديه. وكاتب المزمور يقدّم هذا الإعلان دون أن يقدّم أيّ تفسير واضح له، تاركًا لمتلقّي المزمور مسؤوليّة تفسيره، ذلك في حال تمكّن من إدراك وجوده ومن تحديده، ومن ثمّ التعامل معه.

وهنا أيضًا، فإجابة هذه الأحجية تعتمد على إجابة ما يسبقها من أحجيات أخرى في الأحجية المركّبة لهذا المزمور؛ ففي الأحجية أو المرحلة الأولى يعلن كاتب المزمور زيف لاعدالة هذه الحياة نتيجة لعدم فائدة الغنى والسلطان في مواجهة الموت. وفي الأحجية أو المرحلة الثانية يقوم كاتب المزمور بعكس لاعدالة هذه الحياة لصالح الفقراء من خلال إعلان تساوي الأغنياء الأحياء، الذين لا يفهمون الحقيقة التي يعلنها في الأحجية الأولى مع الفقراء ومع البهائم الميتة التي كان يمتلكها أولئك الأغنياء. وهذه هي بالذات النقطة التي ترتكز عليها إجابة الأحجية الثالثة وتفسيرها.

فسبب نجاة مُقدِّم الأحجية من الانتهاء في الهاوية هو امتلاكه للحكمة التي تمكّنه من فهم كلتي الأحجيتَين السابقتَين، حيث يدرك زيف وبطلان لاعدالة هذه الحياة في الوقت الذي يعجز فيه الآخرون عن إدراك ذلك، ممّا يجلب عليهم دينونة المصير المرعب في الهاوية في حياتهم وفي مماتهم، والذي هو مصير كلّ مَن لا يمتلك تلك الحكمة ويعجز عن فهم تلك الحقيقة. امتلاك تلك

الحكمة والقدرة على تقديمها في أحجية معقَّدة ومركَّبة يعجز الآخرون عن إيجادها وتحليلها وفهمها، وبحسب ما هو مذكور أعلاه حول مفهوم الأحجية كنمط أدبيّ يطرح منافسة ما بين مقدِّم المزمور ومتلقّيها، هو ما يدفع كاتب مز ٤٩ لإعلان امتلاكه للحياة في مقابل موت كلّ من لا يتمكّن من الوصول إلى الحكمة التي يعلنها في مزموره. وبذلك المعنى، يتّفق مز ٤٩ مع المفهوم الموجود في العديد من القصص الكتابيّة والقصص التي تنتمي إلى حضارات الشرق الأوسط القديم المختلفة، وتتحدّث عن بحث أبطال متنوّعين عن الحكمة السرّيّة المرتبطة بالخلود (١٠).

ومن الهامّ أن نشير هنا إلى أنّ كاتب مز ٤٩ يضع نفسه في صفّ الفقراء والأبرار منذ بداية المزمور، ممّا يعني أنّ الحصول على تلك الحياة هو في متناول الفقراء الأبرار إن هم تمكّنوا من امتلاك الحكمة اللازمة التي تسمح لمن يمتلكها بالحصول على الحياة الحقيقيّة والتمتّع بها؛ فامتلاك تلك الحكمة يعني تدخّل الله إلى جانب صاحبها ولصالحه، ومنحه الحياة الحقّة في مقابل دينونة الموت الصادرة بحقّ الأغنياء الأشرار العاجزين عن الفهم. وفي الوقت نفسه، يتبنّى مز ٤٩ المفهوم الموجود في الأدب التقليديّ للحكمة، والذي يعرّف الشخص البارّ بأنّه الشخص الحكيم، والشرّير بأنّه الشخص العديم الفهم. كما أنّ هذا المزمور يعتبر أنّ الفقير هو وحده مَن يمتلك الفرصة لامتلاك الحكمة، وبالتالي ليصير بارًّا ويمتلك الحياة، في حين أنّ الغنيّ عاجز عن الفهم بالطبيعة، وبالتالي فهو شرّير ومُدان. ومن الهامّ أن نلاحظ هنا أنّ الأغنياء الذين يركّز المزمور هجومه عليهم هم الأغنياء المتّكلون على غناهم، أيّ الأغنياء الجشعون الذين يتسلّطون على الفقراء ويظلمونهم. ولا بدّ من أن نشير هنا إلى أنّ آ ٦–٧ تظهر بأنّ الشرّ بالنسبة إلى مز ٤٩ يتلخّص بلاعدالة هذه الحياة، والتي يمثّل فيها الأغنياء المتسلّطون أعداءَ الفقراء ومتعقّبيهم.

(١٠) *Ibid*, p. 540-542.

book mo2tamar .indd 251 6/14/2010 10:21:41 AM

وبالتالي فالإجابة التي يقدّمها مز ٤٩ في مواجهة لاعدالة هذه الحياة هي إجابة معقّدة تأتي في إطار أحجية مركَّبة من ثلاث مراحل، ومخفيّة في قلب قصيدة صعبة في مفرداتها كما في بنيتها وترابطها. تعلن تلك الأحجية المركَّبة عن عدم وجود أيّ مبرر للخوف أو الانزعاج ممّا يبدو على أنّه لاعدالة في هذه الحياة، لأنّها زائفة وباطلة وبلا معنى بسبب عدم وجود أيّ فائدة للغنى والسلطان أمام الموت، وأنّ الأغنياء وبسبب عدم قدرتهم على فهم ذلك يتساوون في حياتهم كما في مماتهم مع بهائمهم ومع الفقراء الأموات، وأنّ الحكيم الذي يمتلك القدرة على إدراك تلك الحقيقة من خلال تحليل هذه الأحجية هو الوحيد الذي يتدخّل الله لصالحه ويمنحه الحياة الحقيقيّة (الشكل ١).

الأحجية أو المرحلة (١): سؤال مباشر

٦ *لماذا أخاف في أيام الشر، عندما يحيط بي إثم متعقبي،*
٧ *أولئك المتكلون على ثروتهم، والذين يفتخرون بعظمة غناهم؟*

الجواب:

١٧ *لا تخف إذا استغنى إنسان، إذا زاد مجد بيته،*
١٨ *لأنه لا يأخذ معه شيئًا في موته، ومجده لا ينزل وراءه.*
١٩ *لأجل أنه يبارك نفسه في حياته، ويحمدونك إذا صنعت خيرا لنفسك.*
٢٠ *تأتي حتى جيل آبائه. لا يرون نورا إلى الأبدية.*

الحقيقة (١): عدم وجود مبرّر للخوف من لاعدالة هذه الحياة لأنّها ظاهريّة وزائفة بسبب عدم فائدة الغنى أمام الموت...

العجز عن فهم الحقيقة (١)

الأحجية أو المرحلة (٢): مثل مخفي

١٣ *الإنسان الذي لا يبيت في كرامة يشبه البهيمة التي تقطع.*

٢١ *إنسان في كرامة ولا يفهم مثلاً، يشبه البهيمة التي تقطع.*

الحقيقة (٢): تَساوي الأغنياء في حياتهم ومماتهم مع كلّ من الفقراء والبهائم في مماتهم...

امتلاكه الحكمة لإدراك الحقيقة وفهمها (١) والحقيقة (٢)
+
الأحجية كمفهوم (مباراة حياة أو موت بين معطي الأحجية ومتلقيها)

الحقيقة (٣): امتلاك كاتب المزمور للحياة كمثال للإنسان الحكيم البار...

الأحجية أو المرحلة (٣): إعلان غامض

٨ بالحق، لا يستطيع أخ أن يفدي إنسان، ولا أن يعطي كفّارة عنه لله. ٩ كفّارة حياة ثمينة جدا وتقصر إلى الأبد.

١٦ لكن الله يفدي نفسي من يد الهاوية، لأنه يأخذني.

الشكل (١): أحجية مز ٤٩

مز ٤٩ كمزمور حكمة

مز ٤٩ هو أحد مزامير الحكمة التي تتضمّن نوعًا من تعليم الحكمة في كتابنا المقدّس، لكنّه يختلف عن معظم تلك المزامير بأنّه لا يطوّر مثلها مواضيع أو مفاهيم أخلاقيّة محددة(١١). كما أنّ الحكمة التي يعلّمها هذا المزمور ليست مجرّد تمرين عقليّ أو لائحة من التعليمات، بل حكمة حياة تتعلّق بفهم الإنسان لحياته في العمق، وكيفيّة عيشه لتلك الحياة(١٢). ومز ٤٩ يمكن أن يُرى على أنّه ردّ على الواقع المتناقض الصعب للحياة، والذي لا يوجد أجوبة سهلة له. ومز ٤٩ نفسه لا يقدّم إجابات سهلة لذلك الواقع، ولكنّه يضع الإطار العامّ الذي يجب أن يتمّ التعامل مع ذلك التناقض ضمنه.

وبذلك المعنى، لا ينتمي مز ٤٩ إلى الفئة الأولى التقليديّة من أدب الحكمة والتي تهتمّ بتقديم المفاهيم التقليديّة للحكمة في إطار مجموعة من التعليمات والإرشادات؛ ويمثّل سفر الأمثال خير مثال عليها في العهد القديم، لكنّه ينتمي إلى الفئة الثانية اللاتقليديّة من أدب الحكمة، والتي تهتمّ أكثر بالصراع مع

(١١) P. C. Craigie, *Psalms 1-50*, Word Biblical Commentary, vol. 19, Waco, Texas: Word Books, Publisher, 1983, p. 358.

(١٢) J. C. McCann, JR., "The Book of Psalms: Introduction, Commentary & Reflection," p. 877.

book mo2tamar .indd 253 6/14/2010 10:21:43 AM

مفاهيم لاهوتيّة وحقائق وجوديّة صعبة في الحياة وبشكل تتحدّى معه المفاهيم والأساليب التقليديّة للأدب الحكميّ؛ ويشكّل سفرَا أيّوب والجامعة مثالَين هامَّين جدًّا لها[١٣]. ومن الواضح أنّ هذا المزمور يتقاطع في العديد من النقاط مع كلّ من سفرَي أيّوب والجامعة، حيث يتقاطع مع سفر أيّوب في تعامله مع موضوع معاناة البارّ ولاعدالة الحياة، ويتقاطع مع سفر الجامعة في اعتبار أنّ الموت هو النقطة التي تتحدّى تلك اللاعدالة، وتحقّق العدالة المفقودة في هذه الحياة. لكنّه أيضًا يتقاطع مع سفر الأمثال في إعطائه أولويّة وأفضليّة للحكمة، وفي مساواته ما بين الحكيم والبار كشخص واحد، وكذلك الأمر مع الجاهل والشرّير.

خاتمة: رسالة مز ٤٩

مز ٤٩ هو صرخة حكمة في مواجهة لاعدالة هذه الحياة، تعلن أنّ تلك اللاعدالة هي ظاهريّة وخادعة، لأنّ الموت هو المصير الذي يتساوى أمامه الجميع، إلاّ أولئك الذين يمتلكون حكمة فهْم تلك الحقيقة، ممّا سيدفع الله للتدخّل لصالحهم ومنحهم ملء الحياة.

قد يبدو محتوى مز ٤٩ سلبيًّا أكثر منه إيجابيًّا؛ فهو يتحدّى بعض المفاهيم السائدة ويحطّم بعض الصور الشائعة، لكنّ البديل الذي يقدّمه لها لا يتضمّن رسالة إيجابيّة واضحة. كما أنّ هذا المزمور لا يطوّر لاهوتًا حقيقيًّا للحياة ما بعد الموت، بما أنّ لاهوتًا كهذا سيتطوّر في مرحلة لاحقة في اليهوديّة. ولكنّ مز ٤٩ يتحدّى متلقّيه ليرى أبعد من الظاهر الخادع للحياة، لأنّ حقيقة الحياة، بحسب هذا المزمور، هي أبعد وأعمق وأكثر تعقيدًا بكثير مما تبدو.

(١٣) P. C. Craigie, *Psalms 1-50*, p. 358.

book mo2tamar .indd 254 6/14/2010 10:21:43 AM

وبالتالي يكتسب مز ٤٩ أهمّيّة خاصّة في تحدّيه لعالمنا المادّيّ، وفي وضعنا أمام حقيقة الموت التي لا مهرب منها، وفي تذكيرنا بأنّ الإله الذي نعبده هو إله يتحدّى الظلم واللاعدالة أينما وُجِدَا، ويطلب أن يمنح حياة أفضل للمهمَّشين والمستضعَفين. من خلال كلّ ذلك يتحدّانا مز ٤٩ لكي نجدّد مفاهيمنا وأفكارنا وعاداتنا وأفعالنا، ويدعونا لكي نتوقف عن النظر إلى الأمور من منظور الأغنياء، ولكي نرى الحياة، ليس كجائزة تربح أو ملكيّة تشترى، ولكن بالأحرى كنعمة تُمنح، وعلينا استقبالها والتمتّع بها ومشاركتها مع كلّ من وما حولنا. كما أنّ هذا المزمور يدعونا لندرك أنّ هذه الحياة، التي هي عطيّة الله، هي أقوى حتّى من الموت. وبذلك فالحكمة التي يعلنها مز ٤٩ هي أنّ الله هو معطي الحياة وضمانتها الوحيدة، وأنّ وضع ذلك الإله في مركز الحياة هو الحكمة الحقيقيّة التي تحلّ أحجية هذه الحياة اللاعادلة[١٤]. ولعلّه يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أنّ العهد الجديد سيعلن في ما بعد بأنّ يسوع المسيح هو كلمة الله، أي منطقه وحكمته التي تجسّدت لتعطي نورًا في الظلمة (يو ١: ١–١٨)، وأنّ يسوع المسيح قد جاء "ليبذل نفسه فدية عن كثيرين" (مر ١٠: ٤٥).

المراجع

Botterweck G. J., Ringgren, H. & Fabry, H.-J. (eds.), *Theological Dictionary of the Old Testament*, vol. I-XV, translated by Willis, J. T. & Green, D. E., Michigan: William B. Eerdmans Publishing Company, 1974-2006.

Brenton L. C. L., *The Septuagint with Apocrypha: Greek and English,* Michigan: Grand Rapids, Zondervan Publishing House, Regency Reference Library, ???.

(١٤) J. C. JR., McCann "The Book of Psalms: Introduction, Commentary & Reflection", p. 878-879.

book mo2tamar .indd 255 6/14/2010 10:21:43 AM

Brueggemann W., *The Message of the Psalms: A Theological Commentary.* Minneapolis: Augsburg, 1984.

Craigie P. C., *Psalms 1-50,* Word Biblical Commentary, vol. 19, Waco, Texas: Word Books, Publisher, 1983.

Dahood M., *Psalms I (1-50),* The Anchor Bible, New York: Doubleday & Company, Inc., 1966.

Dell K. J., "'I will Solve my Riddle to the Music of the Lyre' (Psalm XLIX 4 [5]): A Cultic Setting for Wisdom Psalms?", *Vetus Testamentum* 54/4 (2004) 445-458.

Elliger K. & Rudolph W. (chief eds.), *Biblia Hebraica Stuttgartensia* Stuttgart: Deutsche Bibelgesellschaft, ^{4}1990.

Mays J. L., *Psalms,* Interpretation: A Bible Commentary for Teaching and Preaching, Louisville: John Knox Press, 1994.

McCann J. C. JR., "The Book of Psalms: Introduction, Commentary & Reflection", *The New Interpreter's Bible*, vol. IV, Nashville: Abingdon Press, 1996, p. 639-1280.

Perdue L. G., "The Riddle of Psalm 49", *Journal of Biblical Literature* 93/4 (1974) 533-542.

book mo2tamar .indd 256 6/14/2010 10:21:43 AM